دلالات الألوان في الشعر المقاوم
سميح القاسم نموذجًا

الباحث: أيمن إبراهيم عبد الظاهر

الملخص:

يقوم هذا البحث على دراسة دلالات الألوان في الشعر المقاوم، متخذًا من شعر سميح القاسم نموذجًا، حيث تتبع ظاهرة اللون في القصائد ذات النزعة الثورية التي تهدف إلى التعبير عن مقاومة المحتل، ورفض الخضوع له، والتطبيع معه.

وقد قام البحث باستقراء دواوين الشاعر سميح القاسم، وقراءة الأشعار التي تم فيها توظيف الظاهرة اللونية قراءة عميقة فاحصة؛ بهدف الكشف عن تجليات الألوان، ومعرفة دلالات كل اللون منها، من خلال علاقة الصورة اللونية ببنية القصيدة، وموضوعها، والأفكار المبثوثة فيها.

كلمات مفتاحية: الألوان – الشعر المقاوم – سميح القاسم

Abstract:

This research is based on studying the connotations of colors in resistance poetry, taking the poetry of Samih al-Qasim as a model, as it traces the phenomenon of color in poems with a revolutionary tendency that aim to express resistance to the occupier, refusal to submit to it, and normalization with it.

The research has extrapolated Poetry collections by the poet Samih Al-Qasim, and reading the poems in which the color phenomenon was employed is a deep and thorough reading. With the aim of revealing the manifestations of colors, and knowing the connotations of each color, through

the relationship of the color image to the structure of the poem, its subject, and the ideas conveyed in it .

Keywords: Colors - Resistant Poetry - Samih Al-Qasim

المقدمة

الحمد لله فاتحةُ كل خير، وتمام كل نعمة، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فإن الشاعر سميح القاسم يعد – ولا ريب – من أهم الشعراء الفلسطينيين والعرب المعاصرين، وقد جاءت شهرته من كونه أحد أشهر شعراء المقاومة والرفض، فقد جاهد بالكلمة، وثار بالشعر في وجه المحتل الغاصب الذي سلب الأرض، وانتهك العرض، وأسال الدماء، واعتدى على البشر والشجر والحجر.

والقارئ المدقق في أشعار سميح القاسم يجده قد سعى إلى التعبير عن أفكاره وتجاربه الانفعالية والوجدانية من خلال توظيف كل الطاقات التعبيرية والآليات والوسائل الفنية التي تعينه في صوغ القصيد بطريقة مبدعة معبرة، ومن هذه الوسائل نجد (الصورة الفنية، السرد، التناص، الرمز، الأسطورة، وتوظيف التراث...الخ)، وكثيرًا من طرائق التعبير الإبداعية التي تعين على صوغ القصيد بطريقة مبدعة معبرة، ومن بين هذه الوسائل الفنية نجد توظيف الألوان، من خلال استغلال طاقتها الإبداعية في التعبير عن المعنى بطريقة موحية معبرة.

وبناءً على ملاحظة شيوع ظاهرة توظيف الألوان وتجلياتها في شعر سميح القاسم، ولا سيما شعر الرفض الذي تبين لنا من خلال دراسته أن حضور الألوان ظاهرة واضحة جلية، وأنها اتخذت دلالات متنوعة وثرية، أفادت المعنى، وأكسبته بعدًا جديدًا أكثر عمقًا وثراءً، ومن ثم فقد ارتأيت تخصيص هذا البحث لدراسة ظاهرة الألوان ودلالاتها وحضورها في الشعر المقاوم، وقد جاء بعنوان: (دلالات الألوان في الشعر المقاوم – سميح القاسم نموذجًا).

حيث يتناول هذا البحث دراسة دلالات الألوان في الشعر المقاوم في أشعار سميح القاسم، ويهدف إلى تتبع الألوان في القصائد؛ بغية الكشف عن ألفاظ الألوان ومدى تنوع دلالاتها، وأثر توظيف العنصر اللوني على الصورة الشعرية وبينة القصيدة.

والبحث يحاول أن يصل إلى طبيعة توظيف الصورة اللونية، والدلالات التي ساهمت في تشكيل المعنى من خلال تتبع الألوان ودلالاتها، وقد تبين لنا أن أهم الألوان في شعر سميح القاسم هي: (الأحمر، الأسود، الأبيض، الأخضر، الأصفر، الأزرق)، وقد تم دراسة دلالات كل لون من هذه الألوان من خلال نماذج شعرية، وشواهد تعين على كشف حضور كل لون منها.

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي لدراسة الظاهرة موضع البحث، من خلال حصر النصوص الشعرية التي احتوت على حضور الألوان، ثم استقراء دلالات الألوان وحضورها، وتحليل النصوص من خلال القراءة العميقة الفاحصة، لبيان أثر الألوان في تشكيل الصورة، ودورها في التعبير عن المعنى.

التمهيد:

من خلال تتبع حضور الألوان في النصوص الشعرية يمكن القول: إن حضور التشكيل اللوني في النص الشعري أداة فنية يعتمد عليها الشعراء في التعبير عن تجاربهم الشعورية والانفعالية، ويمكن من خلال المعطيات الثقافية والتجربة الإنسانية المرتبطة باللون أن يكسب الشاعرُ النصَ مجموعةً من الأبعاد الفكرية والثقافية والاجتماعية والنفسية التي يشحنها الحضور اللوني في النص، فمن خلال اللون يمكن أن نكسب النص دلالة معينة، ونجعله يحمل رموزًا متنوعة تنوع آماله وآلامه[١].

وهذه الدلالات والانفعالات التي يثيرها اللون في النفس البشرية تكون نتيجة المخزون الثقافي والاجتماعي والتاريخي الذي يربط بين لون ما وتجربة انفعالية معينة، فاللّون الأحمر مثلا، يحرّك الطّاقة، ويجدّدها اللّون البرتقالي واللّون الأصفر يدلّ على الذّكاء والحكمة، واللّون الأخضر يحفظ انضباط الذّهن، كما يبعث على الرّاحة والاسترخاء، واللّون الأزرق يعين على المواجهة الفكرية، واللّون الأبيض يدلّ على الرّوح الإيجابية والأسود دلالته سلبية[٢].

وهذا يعني أن الألوان بطبيعتها تحمل دلالات معينة ارتبطت بها، وهذه الدلالات تحضر بمجرد حضورها في النص، فتبث في المتلقي مجموعة من الدلالات والانفعالات كالفرح أو الحزن، التفاؤل أو التشاؤم، الراحة أو الانزعاج، السلام أو الحرب... وغيرها من الانفعالات والعواطف، ويمكن تفسير ذلك بالقول إن "العقل يقوم بتنظيم الرؤيا مستأنسا بالخيال والفكر، والتغير والتحوّل الذي يتصل باللون ويترك أثره على الجانب النفسي للإنسان، كتغيير اللون الذي يحدث في يومنا من صبح وليل وشروق وغروب"[٣].

وإن استقراء حضور الألوان في النصوص الشعرية يوضح أن وجود الألوان في النصوص ليس مجرد عكس لرؤية صماء من جانب الشعراء للأشياء من حولهم، فينقلون ألوان الأشياء كما يرونها، وإنما كان محاولة لشحن النصوص الشعرية بطاقة تعبيرية ومزيد من الحمولات الانفعالية، فاللون كثيرًا ما "يشكل جزءا أساسيا من نسيج النص الشعري، واللون على الرغم من أنه عنصر أقرب ما يكون إلي عالم الرسم، فإنه يمتلك فاعلية بصرية تخاطب الوجدان والشعور، وهو بهذا يتحول الي مؤشر أو دال يوضح ضمن سياق لغوي وبهذا يمتلك دلالة في إطار الجملة الشعرية" [٤].

وبعض النقاد يرون أن استجلاء دلالات اللون له مجموعة من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر في المتلقي، مثل: "عمق الخبرة وكثافة التّجربة وطبيعة البيئة الثّقافية، واستراتيجية

تشكّلها وحساسيّة التّفكير، وأنموذج الرّؤية هي التي تصنع للّون رمزه وبعده الدّلالي وقيمته السّيميائية"[٥].

من الأمور المهمة التي نشير إليها أن دلالات اللون وحضوره في النص الشعري يكون مرتبطًا غالبًا بالسياق الذي يرد فيه النص؛ فالسياق وحده هو القادر أن يجعل حضور اللون طاغيًا ومحملًا بالطاقات النفسية والانفعالية التعبيرية، والسياق أيضًا قد يكون وراء جعل اللون في النص مجرد وصف ظاهر للأشياء في الوجود، ومن ثم فإن قراءتنا للنصوص ومحاولة استقراء دلالاتها ستكون قراءة فاحصة رابطة بين الدلالة والسياق الذي ترد فيه.

أولًا: دلالات اللون الأحمر:

اللون الأحمر من الألوان الأساسية في ديوان الشاعر سميح القاسم، بل يمكننا القول إنه اللون الأكثر ذكرًا في الديوان، ومن ثم فقد ابتدأنا البحث به؛ نظرًا لكثرة وروده في الديوان.

وعند الحديث عن دلالة اللون الأحمر، فإننا نقول إنه من الألوان قويّة الأثر والتّأثير، ويتميز بأنه كثير الدلالة، لأنه يحمل عدة دلالات، ويرتبط بمعاني مختلفة، وهو لون يعكس مختلف الحالات النّفسية الحادة، مثل "العواطف الثّائرة والحبّ الملتهب والقوّة والنّشاط وهو رمز النّار المشتعلة"[٦].

والأحمر يستعمل كثيرًا للدّلالة على حالة الغضب و"الصراع واشتعال الحروب، فهو يرتبط بالدم الذي يثير الانتقام والغضب والعدوانية"[٧]. وأحيانًا نجد أن الأحمر يدلّ على الزّيادة والمبالغة في التّعبير عن معاني "الغنى والفرح ويرمز أيضا إلى القتال والشّدة"[٨].

من خلال تتبع الألوان وتجلياتها في ديوان سميح القاسم، سنجد أن اللون الأحمر هو اللون السائد والأكثر حضورًا من بين سائر الألوان، والواقع أن هذا أمر غير مستغرب، ولا مستبعد؛ لأن الشاعر سميح القاسم قد وهب نفسه وشعره للدفاع عن القضية الفلسطينية، فكان بمثابة إعلان ثورة، وصرخة مدوية في وجه المحتل الغاصب للأرض، ومن ثم فاللون الأحمر؛ لون الدماء، وكل الحقول الدلالية المرتبطة به هو اللون السائد في ديوان سميح القاسم.

من خلال استقراء الديوان واستقصاء قصائده سنجد كثير من الأشعار والقصائد التي كساها اللون الأحمر، فلوّن كلماتها وعباراتها وصورها الشعرية، ومن ذلك قول الشاعر[٩]:

حُمّت سراياك فاشربْ من سرايانا
كأساً جَرَعت بها للذلّ ألوانا
وأشحذ مُداك على الجرح الذي عصفت

دماؤه بقلاعٍ البغي نيرانا
أركانُ عرشِكَ، آلينا نقوّضها
فاحشد فلولَكَ.. حيّاتٍ وعُقبانا
يا طامعًا بالذئاب الحمر ، ما غنمتْ
أطماعك السود، إلا بعض قتلانا

من خلال قراءة النص نجد سيطرة الصورة اللونية وبزوها في تشكيل الصورة الفنية، والمعنى العام في النص، يتجلى ذلك أولًا في قوله: (كأساً جَرَعت بها للذلّ ألوانا)، ففي هذه الاستعارة المكنية جسَّد الذل؛ وهو صورة معنوية محسوسة، وجعله صورة حسية مدركة بحاسة التذوق، ليدل على مدى الهوان والذل والمرار الذي يستشعره المستعمر الغاصب الذي يطمع في أرض الوطن المفدى.

وفي أسلوب النداء: (يا طامعًا بالذئاب الحمر) نجد تجليًا آخر للون الأحمر، حيث وصف الذئاب وصبغها باللون الأحمر؛ دلالة على الثورة والتمرد والغضب الذي يشتعل بداخل هذه الذئاب، فهي ملونة ومصبوغة باللون الأحمر، لون الدماء والثورة والتمرد.

وفي الصورة الاستعارية: (أطماعك السود)، نجد صورة تجسيدية غاية في البراعة، زاد من براعتها تلوب الأطماع؛ وهي صورة معنوية غير محسوسة، وجعلها (سود)، مطلية باللون الأسود لون الظلام والظلم والاعتداء على الآخرين وسلب حقوقهم.

من خلال قراءة النص السابق نجد سيطرة اللون على تركيب الصور المادية والمعنوية، ومما لا شك فيه أن اللون جزء أساسي في المضمون الشعري، وهو رافد مهم من روافد الصورة الشعرية، وهو من المدركات البصرية[١٠]، وفي كثير من قصائده الشاعر سميح القاسم نجده قد حرص على أن يربط بين اللون الأحمر وإراقة الدماء حتى إنها تكاد تلون معظم قصائد الديوان، وفي ختام إحدى قصائده، يقول الشاعر سميح القاسم[١١]:

وصارت نكبة النكبات
جناحي ثورتي الحمراء،
باسم حبيبي الإنسان!
بكيت على أبي المغدور في دوار قريتنا
بكيت على حديقتنا
بكيت على رفاق طفولتي،

في وحشة المنفى

في هذا النص نجد الجمع بين المتناقضين؛ حيث (نكبة النكبات)، بمعنى الهزيمة والانكسار والانسحاق أما الهزيمة الكبرى، وفي الوقت نفسه (ثورتي الحمراء)، حيث النهوض والوقوف مرة أخرى، لإعلان الثورة والنضال في وجه العدو الغاشم، والملاحظ أن الشاعر قد وصف هذه الثورة بأنها (حمراء)، للدلالة على الغضب والانفعالات المشتعلة والثورة التي تستعد لتنفجر كبركان هائل هائج، يجرف المعتدي ويقضي عليه.

رأى أحد النقاد المعاصرين أن تكرار استعمال اللون في الصورة الشعرية لدى الشعراء المحدثين يجعله عنصراً من عناصر الشعر، يضاف إلى الموسيقى والعاطفة والخيال[١٢]، وهو أمر ملحوظ في ديوان الشاعر سميح القاسم، وقد تكرر كثيرًا مثل قوله[١٣]:

أطلقها .. ناراً .. في وجه الأعداء

أطلقها .. كلمتك الحمراء

ما دام على الدنيا باستيل

ما دامت قضبان .. وسياط .. ودماء

يا أنبل قنديل

في عتمة باريس العمياء

من خلال قراءة ديوان الشاعر المبدع سميح القاسم نجد الربط الواضح الجلي بين اللون الأحمر ودلالات الثورة والرفض والتمرد، وهذه الظاهرة مستمرة طوال قصائد الديوان، وفي هذا النص نجد تلك الدلالة في قوله: (أطلقها .. كلمتك الحمراء)، تلك الكلمة التي قالها الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) الذي كان يعبر عن رفض الاستعمار ونهب ثورات الشعوب المقهورة بواسطة المحتلين الفرنسيين والغربيين، وقد وصف الشاعر ذلك الرفض وكلمات الاعتراض في وجه الاستعمار من خلال وصف لكماته بأنها: (حمراء)، في دلالة واضحة على الغاضب والرفض والاعتراض بصورة قاطعة؛ فاللون الأحمر هو رمز للانفعالات الحادة، والعواطف الجياشة المتأججة.

من خلال استقراء كثير من الدواوين الشعرية يمكن القول إن "الألوان التي تصدر عن نفس الفنان تكون أكثر تعبيرا وأكثر تصديقا في تفسير الألوان، وقدر رأى هيراقليط أن الجمال المبطن أكثر روعة من الجمال الظاهر"[١٤]. وهذا راجع أن الألوان تحقق للنص مجموعة من المميزات، منها إضفاء مزيد من الجمالية، بالإضافة إلى تعميق التجربة الوجدانية، فضلًا عن تجسيد العواطف والانفعالات في صورة بصرية شاخصة للعيان، ومن ذلك قوله[١٥]:

فارفع شعلتك المشبوبة
وأضئ للأم المحبوبة
فالدرب طويل دون ضياء
والدرب قصير ما دامت
في الموكب رايتك الحمراء
فارفعها ، ولتخفق أبدا
في الدرب على جثث الشهداء
الدرب قصير
الدرب قصير !

من خلال قراءة النص نجد طغيان الصورة الحسية البصرية على تكوين النص، من خلال مجموعة من الألفاظ والمفردات والتعبيرات مثل: (شعلتك المشبوبة) حيث صورة الشعلة الملتهبة المضيئة، التي أكدها بقوله: (أضئ)، و(ضياء)، وكلها صور بصرية تدرك بالنظر.

وفي قوله: (رايتك الحمراء) توظيف للون الأحمر، الذي يشير دلاليًّا إلى معاني الثورة والحروب وسفك الدماء في سبيل نيل الحرية، واستعادة الحق المسلوب.

يعد توظيف اللون من علامات البراعة الفنية والمقدرة الأسلوبية، والأصالة الأدبية، والشاعر بحق هو "الفنان الذي تتحول الألوان عنده إلى شيء مطلق، يرتفع عن مجرد وصف وردة بأنَّها حمراء (...) مما بلي استعماله، في تقييد لإعمال الخيال استنباتًا لصور لونية بكر، تكشف عن خبايا النفس"[١٦].

من خلال عرض النماذج السابقة يتبين لنا أن الشاعر قد أفاد من الطاقة الدلالية للون الأحمر، فعبر من خلاله عن حالة شعورية تشير إلى الثورة والسعي باستماتة نحو الحرية، التي جسَّدها بالصورة البصرية اللونية.

ثانيًا: دلالات اللون الأسود:

من المؤكد أن اللون الأسود من الألوان الشائعة في الشعر العربي، وهذا الشيوع نابع من كثرة الأشياء ذات اللون الأسود في الحياة، بيد أن غالب هذه الأشياء يغلب عليها الدلالات سلبية، فالليل والغراب، والحداد، وكثير من الأشياء السوداء، ومن ثم انعكست تلك الدلالات على تمثيل السواد في الثقافة الشعبية والموروث الثقافي، "فكانت عبارة يوم أسود كناية عن التشاؤم به وتوقع الشر"[١٧].

فاللون الأسود يلتصق بدلالات سلبية في كثير من الأشياء من حولنا، وفي كثير من السياقات يكون اللون الأسود رمزًا للحزن والبؤس والشقاء والارتباط بالكثير من الدلالات السلبية، ففي الطبيعة نجد أن اللون الأسود يمثل الظلام الكامل وانعدام الرؤية، وفي الشعر أصبح "يعد رمزًا للحزن والموت والألم والخوف من المجهول والعدمية والفناء"[١٨].

من الأمور المعلومة أن اللون "جزء لا يتجزّأ من ثقافة الإنسان وذاكرته ورؤيته وحلمه، وسياقات تعبيره عن ذاته وعن الأشياء"[١٩]. واللون الأسود من الألوان التي استمدت دلالاتها السلبية من خلال ثقافة البشر وعلمهم به، وفي كثير من النماذج الشعرية في ديوان سميح القاسم نجد تلك الدلالات السلبية، مثل قوله[٢٠]:

أيا سائلي في تحدٍّ وقوّهْ
أتُنشدُ؟ أين أغاني الأخوّه؟
قصائدك السود بركان حقد
ومرجل نار، وسخط وقسوه
فأين السلام.. وأين الوئام
أتجني من الحقد والنار نشوة

من خلال قراءة النص نجد التمازج والاختلاط بين الصور المادية المعنوية الممتزجة بالصور المادية الحسية؛ نستجلي الصور المعنوية في كل من: (تحدٍّ)، (قوّهْ)، (أغاني الأخوّه)، (سخط)، (قسوه)، (السلام)، (الوئام).

وبرغم غلبة الصور المعنوية، فإن الشاعر قد عمد إلى التجسيد، ومحاولة تحويل تلك المعاني إلى أشياء مادية المحسوسة وملموسة، وذلك بداية من الصورة الحسية المادية (مرجل نار)، التي جسدت الحقد وجعلته كالنار التي تأكل كل ما تطاله، وفي أسلوب الاستفهام: (أتجني من الحقد والنار نشوة) نستشعر دلالات الاستنكار والتوبيخ للمخاطب المملوء بالحقد والكره، والبعد عن كل ما هو إنساني نبيل.

وفي الصورة اللونية (قصائدك السود بركان حقد) تجسيد للصورة المعنوية، وجعلها شيئًا ماديًا ملونًا بلون السواد؛ رمز الظلام والحقد والكره، وكل المعاني البغيضة.

حول العلاقة بين اللون والصورة الفنية في النص يرى بعض النقاد أنَّ اللون يبقى "جزءًا مهمًا من خبراتنا الإدراكية الطبيعية للعالم المرئي، واللون لا يؤثر في قدرتنا على التمييز بين الأشياء قط، بل ويغير من مزاجنا وأحاسيسنا ويؤثر في تفضيلاتنا وخبراتنا الجمالية بشكل يكاد

يفوق تأثير أي بعد آخر، ويعتمد على حاسة البصر أو أية حاسة أخرى"[٢١]. فالصورة اللونية تسهم في التأثير على المتلقي، وتساعد على تجسيد المعاني، ونستجلي ذلك في قول الشاعر[٢٢]:

واهتزت البيد الوفيَّه!
جثة، تدفنها الريح، برملٍ وغبار
في جلالٍ ورويَّة
والجراح السود تستصرخ: أقدِمْ!
أيها الآتي ورائي.. خذ بثاري!
خذ بثاري.. خذ.. بثري؟!

يعبر النص عن حالة الثورة والنضال والتمرد على روح الهزيمة والانكسار، برغم الجراح والآلام والأوجاع، وفي (الجراح السود تستصرخ) وصف الجراح، وهي شيء معنوي مجرد، حوله الشاعر إلى شيء مادي ملموس، ومرئي مدرك بحاسة البصر، ولونه أسود، كناية عن الدلالات السلبية المرتبطة باللون الأسود الملون به تلك الجراح، مما يدل على مزيد من الإحساس بالألم والوجع.

من الدلالات المهمة التي لا يمكن التغاضي عنها في الصورة الاستعارية (الجراح السود تستصرخ) التي حملت دلالات التشخيص، وتحويل الجراح إلى كائن خائف يستصرخ ويستنجد.

تناول الثعالبي الدلالات المجازية للألوان، فقال "عيش أخضر، وموت أحمر، ونعمة بيضاء، ويوم أسود، وعدو أزرق"[٢٣]. وفي ديوان سميح القاسم نجد التناسب بين الألوان والحالة الانفعالية والفكرة التي يدور حولها النص، ففي إحدى قصائده يقول الشاعر[٢٤]:

أغمس غرتي
في الخبر – يا حبيبتي – وأرسم الحداد
على جبيني الشمع
ومن خلال الدمع
أواصل الإنشاد
لحبي المتروك في مدينتي

من الملاحظ كثرة الألفاظ المرتبطة بالسواد واللون الأسود في ديوان الشاعر سميح القاسم، وفي هذا النص عبر الشاعر عن السواد بلفظ (الحداد) أي لبس اللون الأسود رمز الموت والحداد على الأموات، بسبب كثرة القتلى في الحرب

وفي الجملة الخبرية (أرسم الحداد) ثمة استعارة مكنية جسد فيها الحداد وأعطاه صورة مرئية يتم رسمها، وبالطبع تلوينها باللون الأسود، رمز الحزن ونصب المآتم.

مما لا شك فيه أن اللون الواحد له "أكثر من دلالة، وقد تكون له دلالات رمزية متعارضة"[٢٥]. ففي غالب الدلالات يحمل اللون الأسود دلالات سلبية، وفي بعضها يحمل أبعادًا مغايرة، ومعاني مختلفة تكون إيجابية، والمتتبع لتمثيل اللون الأسود في شعر سميح القاسم يجد تنوعًا في الدلالة والتوظيف؛ بين دلالات سلبية أحيانًا، وأحيانًا التعبير بالدلالة إيجابية حينًا، ومن شواهد التمثيل الإيجابي قوله[٢٦]:

يا إخوتي السمر العراة....
ويا روايتي الأليمة
غنوا طويلاً وارقصوا بين الكوارث والخطايا »
لم يقرأوا عن « دون كيشوت » وعن خرافات القتال
ويجندون كتائباً تفني كتائب في الخيال
فرسانها في الجوع تزحف .. والعصي لها بنادق
وتشد للجبناء ، في أغصان ليمون ، مشانق
والشاربون من الدماء لهم وسامات الرجال

اللون الأسود من الألوان التي تحمل دلالات سلبية مأخوذة من دلالات اللون الأسود في الطبيعة والموروث الثقافي الذي ربط بين اللون الأسود ودلالات الحزن والظلام والظلمة والليل والوحشة والخوف، بيد أن اللون الأسود قد اكتسب دلالات إيجابية في النص.

فمن خلال قراءة النص نجد أن الشاعر قد وظف اللون الأسمر باعتباره درجة من درجات اللون الأسود، والملاحظ أن اللون ههنا قد اكتسب دلالات إيجابية تدل على القوة والصبر والثبات وشدة البأس، وكل تلك المعاني مأخوذة من الـ(سُمرة) لون بشرة الرجال الذين يتوجه إليهم النص الكلام، ففي أسلوب النداء (يا إخوتي السمر) نجد دلالات التكريم والتشريف لهؤلاء الرجال الذين هم برغم كونهم (عراة) فإنهم جديرون بأن يهزموا الظروف، ويقهروا الصعاب، ويقفوا شامخين في وجه (الكوارث والخطايا).

من الأمور التي لا يمكن أن نتجاوزها حالة الاستنهاض، ومحاولة شحذ الهمم، والدعوة إلى التحدي والصمود والثبات، ففي قوله: (غنوا طويلاً وارقصوا بين الكوارث والخطايا) تعبير عن بعث الأمل، والدعوة إلى التشبث بالحلم برغم الصعوبات والأزمات والكوارث.

وفي قوله: (فرسانها في الجوع تزحف) تأكيد على المعنى نفسه، حيث الجوع الذي يطارد هؤلاء الرجال، وبرغم ذلك فإنهم (فرسان) أبطال، بواسل شجعان يحاربون المعوقات والصعوبات ويدخلون الحروب بهدف النص، حتى إن (والعصي لها بنادق) أي إن قوة العزيمة، وشدة البأس، والثبات والإصرار، حولت عصيهم البسيطة إلى أسلحة فتاكة، تهلك الأعداء.

تتجلى براعة الشاعر في توظيف عنصر اللون في النص الشعري، وإننا نلحظ ذلك من خلال تلك العلاقة التي "تقيم بين اللون والكلمة علاقة وثيقة، يتداخل فيها اللامرئي بالمرئي"[٢٧]، وهذا ما تكشف عنه القراءة المتأنية للنص، حيث إكساب اللون دلالات مغايرة للمعهود، بسبب السياق الذي وردت فيه، ونتبين ذلك أيضًا في خاتمة القصيدة في قوله[٢٨]:

يا إخوتي السمر الجياع

الحالمين ببعض رايهْ

يا إخوتي المتشرّدين ويا قصيدتيَ الشقيّه

ما زال عند الطيّبين، من الرثاء لنا بقيّه

ما زال في تاريخنا سطر،

لخاتمة الرواية

جرت العادة أن نرى الشعراء ينفرون من اللون الأسود في بشرة الإنسان، وذلك لارتباطه بالعبيد وللشبه القائم بينه وبين الغربان[٢٩]، ولكن في شعر سميح القاسم نجد أن اللون الأسمر– أحد درجات اللون الأسود – يمكن القول إنه كان لونًا محببًا، فقد حمل دائمًا دلالات إيجابية، لا سيما حينما يعبر عن لون بشرة الرجال العرب، فيجعل هذا اللون نابع من أشعة الشمس التي صبغت بشرة الرجال ووجوههم وحولتهم إلى اللون الأسمر، فأكسبتهم القوة والعزيمة والثبات، وكل تلك الدلالات مأخوذة من سمرة الشمس التي تعطي هؤلاء الرجال من صفاتها.

ففي أسلوب النداء: (يا إخوتي السمر الجياع) نجد دلالات التكريم والتشريف لهؤلاء الرجال، والتعبير عن الدلالات الإيجابية، التي نستجليها من (إخوتي) التي عبَّرت عن دلالات المودة وروابط الدم والقرابة.

وفي الجملة الخبرية (ما زال في تاريخنا سطر... لخاتمة الرواية) كشف للدلالات المراد إضفائها على هؤلاء الرجال، فبرغم جوعهم، وبرغم ضعفهم، وبرغم الظروف الصعبة المحيطة بهم، فإن أيديهم وأفعالهم قادرة على كتابة التاريخ، وتسطير صفحات من مجد جديد، يعيد سيرة المجد القديم، والأيام الخوالي.

ثالثًا: دلالات اللون الأبيض:

من خلال استقراء الدواوين الشعرية يمكننا القول إن اللون الأبيض هو أكثر الألوان التي ارتبطت بالدلالات الإيجابية عند الشعراء، والسبب في ذلك يعود بالتأكيد إلى اكتسابه الجمالية من العرف الشعري والاجتماعي الذي كان سائدًا منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا[٣٠].

فاللون الأبيض يرمز لمعاني "الطّهارة والنّور والغبطة والفرح والنّصر والسّلام"[٣١]. ومن الدلالات السياقية للون الأبيض نجد أنه يرمز لمعاني "الصّفاء ونقاء السّريرة والهدوء والأمل وحبّ الخير والبساطة في الحياة وعدم التقيّد والتكلّف"[٣٢]. أما عن تمثيل اللون الأبيض في شعر سميح القاسم فهي كثيرة، مثل قوله[٣٣]:

كقطوف دالية
مرنحة على هزج المواسم ،
كحمائم بيضاء ، أيدينا تلوح بالمحارم ...
لجوادنا العربي ، يصهل في معاركه الطويله
ويقول: يا نار الأعاجم
أفنى .. ولا يرتد عرفي
أفنى .. ولكن لست أغدر فارسي ، وأخون سيفي ،
أنا لم أزل في وجهك المجدور يا نار الأعاجم

يشير اللون الأبيض في بعض دلالاته إلى المحبة والأخوة والسلام، وقد اقتنص الشاعر هذه الدلالات ووظفها في بنية النص للتأكيد على أمرين يكمِّل كل منهما الآخر، أحدهما الفروسية والشجاعة والبسالة في الحروب، من خلال الجملة الخبرية (جوادنا العربي ، يصهل في معاركه الطويلة)، حيث صورة الجواد العربي الأصيل الذي لا يتخلى عن فارسه، ولا يفر ويهرب من المعارك، فهو ثابت أصيل في وجه كل معتدٍ أثيم.

والأمر الثاني عبَّر عنه بقوله: (كحمائم بيضاء ، أيدينا تلوح بالمحارم) في إشارة إلى السلام، والدعوة إلى المحبة والوئام، ومد يد الخير للآخر/الغرب/الأعاجم.

"امتازت صورة اللون الأبيض من غيره بتفضيل الشُّعراء وأُنسهم به، ففيه تعبير عن أملهم وتفاؤلاتهم، وللمكانة الأثيرة التي حظي بها اللون الأبيض عند الإنسان نجده يبعث على

الصفاء والنقاء والطهر والمودة والمحبة، إذا ما استدعاه الشاعر في شعره ومزجه بتراكيبه، فإنَّه مصدر للهدوء والطمأنينة"[٣٤].

فالشاعر وظَّف اللون الأبيض للدلالة على معاني المحبة والسلام والأخوة الإنسانية، وهي الدلالات المعروفة عن اللون الأبيض والمرتبطة به في الوعي الثقافي، والموروث الأدبي، وفي نص آخر يقول الشاعر[٣٥]:

إن غازلتك سحابة بيضاء .. دعها في أمان
وإذا بكت دعها فإن الأرض ما زالت حبيبه
وأنا غرزت أظافري الحمراء في قلب الزمان
وهتفت من أعماق أعماقي : موانئنا قريبه !
يا أيها المغدور من عام وراء الأربعين ...

يحمل اللون الأبيض في معظم دلالاته معاني السلام والأمل والإقبال على الحياة، وكثيرًا من الدلالات الإيجابية، وفي هذا النص نجد تمثيلًا لتلك الدلالات؛ ففي أسلوب الشرط: (إن غازلتك سحابة بيضاء .. دعها في أمان) تأكيد على تلك المعاني، حيث لوَّن السحابة باللون الأبيض رمز النقاء، والخير الآتي مع السحب الممطرة، مما يدل على الأمل في غدٍ أفضل، يأتي بالخير الذي تجلبه هذه السحابة البيضاء.

من الأمور التي لا نغفل عنها، تركيب الصورة البصرية، وامتزاج اللون الأبيض مع اللون الأحمر، ففي الجملة الخبرية: (غرزت أظافري الحمراء في قلب الزمان) توظيف للون الأحمر، لون الدماء المعبر عن الثورة والمعارك والقتال في سبيل الدفاع عن الوطن المغتصب.

إن القراءة العميقة للنص، والبحث عن توظيف اللون في الصورة الشعرية، تكشف عن التشبث بالوطن، والاستماتة في الدفاع عنه والتمسك به، من خلال امتزاج صورة (السحابة **البيضاء**) رمز المطر والخير والأمل والإقبال على الحياة، وكل تلكم المعاني الإيجابية، وفي الوقت نفسه نجد (أظافري **الحمراء**) للتعبير عن التمسك بالوطن والقتال في سبيله، وإراقة دماء المعتدي عليه، أو التضحية بالدماء في سبيله.

المتتبع لظاهرة تفاؤل العرب بالأبيض يلحظ "أنَّ الأبيض لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما ارتباطه بالشفافية واللمعان والبريق والنقاء والصفاء والطهر هو الذي كان يحفزهم ويدفعهم إلى التمسك به ويبعث الأمل في ذواتهم، فالأبيض ذو دلالات سعيدة وبهيجة، فهو رمز دال على الإيجاب والنور والإشراق"[٣٦]. وهذا ما نجده في ديوان سميح القاسم، مثل قوله[٣٧]:

اغسلوها.. علها تبيض ، تبيض .. وترتد شعاعًا

أو شراعًا

ينقذ الأحياء من نكبة ميناء وحيد يتداعى !

مثل النصوص السابقة نجد أن اللون الأبيض يحمل المعاني الإيجابية، والدلالات المحببة إلى النفس، وفي هذا النص نجده يعبر عن دلالات النقاء؛ ففي الجملة الإنشائية (اغسلوها.. علها تبيض) جعل الشاعر اللون الأبيض – في المعنى المباشر والقراءة السطحية – يشير إلى النظافة والنقاء، أما القراءة الثانية فهي تشير إلى توظيف اللون الأبيض ليعبر عن شموخ الأعلام ورفعتها وسموها، ومنزلتها العالية، وتلك المنزلة مكتسبة من شرف أصحابها والمدافعين عنها.

فاللون الأبيض في هذا النص حمل دلالات مركبة، تجمع الكثير من المعاني التي تعبر عن النقاء والسمو والشموخ والعلو والمنزلة العالية السامية.

في النصوص السابقة تم توظيف اللون الأبيض للتعبير عن دلالاته المعروفة؛ حيث الخير والنقاء والسلام، وغيرها من الدلالات الإيجابية المعهودة للون الأبيض، بيد أن اللون الأبيض لم يكن دائمًا يمثل هذه الدلالات، فأحيانًا يعطيه الشاعر دلالات مغايرة مثل قوله[٣٨]:

الناس

كثر من حولي ، كثر

سود ، بيض، صفر

من كل الأجناس !

والموسيقى

أسراب من كل طيور الله

الفالس .. رفوف سنونو

ففي هذا النص نجد تمثيل اللون الأبيض في قوله: (سود ، بيض، صفر... من كل الأجناس !) والأبيض ههنا، كالأسود الأصفر، رمز لوني يشير إلى تعدد أجناس البشر واختلاف ألوانهم، ما بين أسود ذي أصول إفريقية، وأبيض من الغرب الأوربي، وأصفر منحدر من قارة أسيا، فاللون في هذا النص تعالق مع اللونين الأسود والأصفر للإشارة إلى اختلاف البشر، وتعدد أجناسهم وأعراقهم، وبرغم هذا الاختلاف والتعدد واختلاف اللون والعرق والجنس، فإنهم متساوون ويشكلون أطياف البشر.

فتوظيف اللون في هذا النص –كغيره من نصوص شعر سميح القاسم – تعبير إيحائي يشير إلى معاني سامية تهدف إلى الدعوة للمحبة والإخاء بين البشر، بدلًا من التناحر والتخاصم والافتراق بين البشر بسبب اختلاف ألوانهم.

رابعًا: دلالات اللون الأخضر:

اللون الأخضر – بلا شك – من الألوان الجميلة المحببة إلى النفس، فهو يجمع بين الجمال للنظر، والراحة للنفس، والاطمئنان للروح، وينبع هذا من ارتباط الخضرة بلون الزرع، ومن ثم فهو "يدل على الاستقرار والسكن والهدوء، وهو أكثر الألوان استحضارا للخير والخصب"[٣٩].

فالأخضر يدل، سيميائيا، على معاني "النّمو والأمل والخصوبة والنّبل"[٤٠]. وفي السّياق الأسطوري، والثقافة البشرية قديمًا يرمز اللّون الأخضر إلى معاني "الحياة والتّجديد والانبعاث الرّوحي والرّبيع"[٤١].

أما عند البحث عن دلالات اللون الأخضر في شعر سميح القاسم فإننا نجد حضور اللون الأخضر لا يبتعد كثيرًا عن هذه الدلالات المعهودة، ومن ذلك قوله[٤٢]:

أطلقها .. من أعمق أعماق الإنسان
كلمتك المغروسة في وهران
في هافانا .. في هارلم .. في كل مكان
كلمتك المورقة الخضراء
أطلقها !
ما زال على الدنيا باستيل !
ما زالت قضبان وسياط ودماء !

من خلال قراءة النص نجد بروز الصورة البصرية المشكَّلة من خلال تراسل الحواس بين السمع والبصر؛ حيث الكلمات وهي صوت مسموع من مدركات حاسة السمع، جعلها النص مرئية، يراها المحتل الغاصب، فكساها باللون الأخضر – وهو صورة بصرية من مدركات العين – مما يعبر عن دلالات الخير والنماء، والملاحظ أن الشاعر قد وصف هذه الكلمات بأنها (خضراء)، وقبل ذلك وصفها بأنها (مورقة)، أي خضراء نضرة، تنمو وتستعد للإزهار ومزيد من الإنبات، للتعبير عن الأمل النابت في النفس، فصار نبيتة ناشئة تنمو وتكبر وتنضج، حتى تصير شجرة وارفة الظلال.

يرى بعض النقاد أن "اللون أسلوب فني يسهم في انفتاح النص الأدبي على رؤى وآفاق تضيف قيمة منتجة للمعنى والصورة تغري القارئ على التواصل والمتابعة"[٤٣]. وفي النص السابق أكسب الشاعر القصيدة بعدًا جديدًا من خلال توظيف اللون، وهو أمر نجده مكررًا في كثير من قصائد شاعرنا سميح القاسم، مثل قوله في نص آخر[٤٤]:

ويمر الليل تلو الليل ..
في مكتبة البيت القديمه !
وعلى زرقة أجفاني تنمو
خضرة الماضي الرحيمه !
روعة " تعقب روعه
وفتوحات مشعه
بدوي.. شغل العالم حذقًا ومهاره
فعلوم.. وفنون وحضاره

من خلال قراءة النص نجد الحضور اللافت للصورة اللونية، من خلال توظيف اللون (الأخضر) واللون (الأزرق)، وتبرز قيمة توظيف اللونين، من خلال التحول والتتابع بين دلالة اللونين، فاللون الأول: هو (الأزرق) الذي يشير في بعض معانيه إلى دلالات، الغموض والكآبة والوحشة، أما اللون الثاني: هو (الأخضر) الذي يشير إلى معاني الخضرة والنماء والإنبات، ومن ثم الخير الوفير، وما يصاحبه من حياة وأمل، وغد مشرق جميل.

وقد وظف النص هذين اللونين للتعبير عن حالة التحول والصيرورة من الماضي الذي يحمل بعض الخيبات والانتكاسات، بل والنكبات أحانًا، إلى الأمل في غدٍ أفضل، وحلم بمصير بمستقبل مشرق مع صحوة العرب، وحركة التنمية والأخذ بأسباب التقدم والرقي والازدهار.

لقد وظف الشاعر اللون الأخضر في النص؛ لأنه يعبر عن "انعكاس لطاقة الأمل التي يرنو إليها الشاعر".[٤٥] وفي نص آخر نجده يستعين بمعين اللون الأخضر للتعبير عن حب الحياة والإقبال عليها، يقول الشاعر[٤٦]:

ثم عدنا – بعد أن مرت شهور
والتقينا في مجله
وأتاني من صوتك الأخضر من خلف السطور
« أنا لا أعرف شيئًا! .. حدثوني ! »

في النص يتجلى اللون من خلال تراسل الحواس بين السمع والبصر، حيث إكساب الصوت – وهو كلام يدرك بحاسة السمع – وتشخيصه وتلوينه (باللون الأخضر)؛ ليجعله مرئيًّا، ومدركًا من مدركات حاسة البصر، بهدف الإشارة إلى حب الحياة، والسعي نحو المحبة والخير والوئام.

فالشاعر يتحدث إلى إنسان غربي ناقص المعرفة، يتضامن مع القتيل (الصهيوني اليهودي)، ولا يعرف شيئًا عن حقوق المقتول (العربي)، ودمه المراق، وفي النص جدال ومحاولة التعريف بالقضية الفلسطينية وأبعادها، والمعلوم أن اللون الأخضر في بعض دلالاته يشير إلى دلالات الإنبات والنمو، والأمل في الحياة.

يرى أحد الباحثين أن اللون الأخضر لون مميز، وأهميته "تبرز من خلال ارتباطه غالبا بالأمل والتفاؤل والعطاء والجمال والبهجة"[٤٧]. وهو أمر تكرر مرات عديدة في ديوان الشاعر سميح القاسم، ومنه قوله[٤٨]:

من دمي... من ألمي... من ثورتي
من رؤاي الخضر... من روعة حبي
من حياتي أنتِ... من أغوارها
يا أغانيَّ! فرودي كل درب

في اللون الأخضر دلالات النماء والخير الوفير، والحياة المزدهرة التي تتولد مع النبات الذي يشير إلى كل معاني الحياة، وفي الاستعارة المكنية (من رؤاي الخضر) نجد تجسيد الرؤى والأحلام وجعلها شيء مرئ بحاسة البصر، ومن ثم قام الشاعر بتلوينها باللون الأخضر، لون الخضرة والنماء وإعطاء الحياة لكل شيء، مما يدل على حالة البعث والنشور ونفخ الروح والحياة في وجود الشاعر.

من خلال إعادة قراءة النص نجد التناقض والتضاد والمفارقة الواضح بين دلالات السطرين الأول والثاني؛ ففي السطر الأول من النص (من دمي... من ألمي... من ثورتي) الذي يدل الألم والمعناة، بيد أن الألم لم يولد هزيمة وانكسار وإنما ولَّد ثورة تعتمل في النفوس، وتنطلق في وجه المحتل الغاصب.

وفي السطر الثاني: (من رؤاي الخضر... من روعة حبي) تجسيد لهذه الثورة ورفض الانكسار والهزيمة، فمن رحم المعاناة يولد الحلم، والأمل، وبعث الحياة من جديد، ومن ثم فقد جاء اللون الأخضر تجسيدًا وتعبيرًا عن تلك المعاني.

خامسًا: دلالات اللون الأصفر:

اللون الأصفر من الألوان التي تشير دلاليًا إلى مجموعة من المعاني المختلفة التي تصل أحيانًا إلى حد التناقض، فبعضها يشير إلى الحياة والخير والنماء المستمد من لون القمح، وبعضها يشير إلى النور والإشراق والضياء والدفء المستمد من أشعة الشمس، وأحيانًا يحمل معاني الحقد والكراهية والغضب، والموت والمرض والشحوب والجفاف والقحط[٤٩]، إلى جانب معاني "الضّعة والخداع والغشّ"[٥٠].

وقد قيل إن "وقوع الأصفر في السياقات الشعرية دليل على الحالة النفسية للشاعر، ولذلك نجده يستعير الصفرة لكل شيء يحيط به أو يحلم به"[٥١]، لأنه يدل على الحالة الانفعالية للشاعر أيًا كان نوعها، ومن ثم ففي شعر سميح القاسم نجد تجسيدًا لتلك الدلالات، حيث حالة الثورة العارمة والرؤية الآنية للحالة البلاد الواقعة تحت الاحتلال الصهيوني الغاشم، ومن ثم فورود اللون الأصفر – غالبًا – كان حاملًا لدلالات الفقر والجدب والموت، ومن شواهد ذلك قوله[٥٢]:

– من أنت ؟؟
إنسان تغرب في طريق الرحلة الصفراء
يزحف نحو أقصى الدرب ، نحو البقعة
السوداء في الأفق المشوه .. في المجال
المعتم المرهوب ، غلفه السحاب !
– منذا هنالك ؟؟
– لعنة أخرى تلوب على المدى المجهول
مطفأة العيون ، تدب في قلق مميت ،

يتحدث النص عن مأساة الإنسان المعاصر الذي يشعر بالتيه وفقدان الهوية، ويبحث عن السعادة ويسعى نحوها سعيًا حثيثًا، بيد أن المصير كان مجهولًا، والسعادة ضائعة، فأحس الشاعر بالحزن والشقاء، وقد انعكست تلك الأحاسيس على الجو المسيطر على النص، فنجده ملونًا بألوان تناسب ذلك الشعور، بداية من قوله: (الرحلة الصفراء) التي حملت دلالات التصحر والجدب والفناء، وتشير إلى السير في رحلة قاطعة أفق الصحراء المقفرة التي لا حياة فيها.

وفي الصورة اللونية (البقعة السوداء) تأكيد على المعنى ذاته من خلال توظيف دلالات اللون الأسود الذي يشير إلى الظلمة والوحشة، والليل البهيم

من الملاحظ أن الصورة اللونية في النص قد اكتست بدلالات الرهبة والخوف، والتعب والمشقة، ففي (الأفق المشوه) تأكيد على رؤية الشاعر للكون من حوله، وتدليل على تلك الحالة الشعورية السلبية التي تسيطر على جو النص ومعانيه، حيث رؤية العالم في صورة قبيحة مشوهة، تملؤها الآلام والتجارب السلبية، وفي (المجال المعتم المرهوب) نجد الدلالات نفسها؛ حيث رؤية العالم والأفق المحيط في صورة ظلام دامس، ومجال رؤية معتم وقاتم.

في كثير من النصوص الشعرية نجد أن اللون الأصفر ارتبط بالمرض والسقم والجبن والغدر والخيانة[٥٣]. وقد سار سميح القاسم على ذلك الدرب في أشعاره مثل قوله[٥٤]:

لو هَزَّنا أن يَصنعَ الأعداءْ
تاجَ ملوكٍ يَعرُبَ.. من حَذوةِ الحِصَانْ
ما أصبَحَتْ حبيبتي وجهًا مِنَ الدخان
وجثة صفراء
يزني بها شراذم القرصان

في النص تعبير عن الشعور بالمرارة والألم جراء الهزيمة، والإحساس بالضعف والهوان والخذلان، وقد عبَّر عن النص عن ذلك الشعور من خلال توظيف اللون (الأصفر) ودلالاته الموحية بالمرض والشحوب والموت، ففي (أصبَحَتْ حبيبتي... جثة صفراء) تعبير عن الموت، والحبيبة ههنا ليس المرأة المعشوقة، وإنما الأرض وتراب الوطن وحدوده، وقد لون الشاعر هذه الأرض المحبوبة باللون الأصفر للتعبير عن الجفاف والخراب الذي حلَّ على هذه الأرض بسبب المحتل الغاصب، الذي يحاول قتل الحياة، ويقضي على الحرث والنسل وكل مظاهر الحياة، ومن هنا فإن اللون الأصفر موحي ومعبر عن التجربة الشعورية في النص.

ومن شواهد توظيف اللون الأصفر في الصورة الشعرية قول شاعرنا سميح القاسم[٥٥]:

وماذا؟
والحقول الصفر
لا تعطي لصاحبها
سوى ذكرى متاعبها
وبدفق خيرها الموفور
في أهراء غاصبها

يدور النص في فلك الوطن، ويعبر عن متاعب الوطن وأزماته في الوقت الراهن، وقد استعان الشاعر بدلالات اللون الأصفر من خلال قوله: (والحقول الصفر...)، فنجد تعبيرًا عن حالة الجدب والفقر، وغياب النماء والخير الذي يُغدق على أبناء الوطن،

فالنص يعبر عن حالة الحزن بسبب قلة الخير ، وقد عبَّر عن تلك القلة من خلال دلالات اللون الأصفر الذي يشير إلى معاني الجدب والجفاف والجفاء والتحول نحو الموت والفناء والتلاشي.

سادسًا: دلالات اللون الأزرق:

اللون الأزرق من الألوان متعددة الدلالات، وربما يرجع هذا إلى تعدد درجات اللون الأزرق، بداية من الأزرق الفاتح حتى الأزرق الغامق، والملاحظ أن الأزرق الفاتح في الطّبيعة هو لون السّماء والماء، ومن ثم فهو يبعث على الراحة والطمأنينة والهدوء، أما الأزرق القاتم فيقترب من اللّون الأسود، ومن ثم فهو يدل على الموت والعداوة، وأحيانًا يرتبط بالحزن والكآبة والضياع، وأحيانًا يبعث في النّفس أحيانا روح اليأس[٥٦]. "فمع أن السمة الغالبة للأزرق تحمل معنى الصفاء الامتداد، إلا أنه يخرج إلى دلالات متعددة منها ما يدخل في معنى الموت والعداوة، ومنها ما يدخل في عالم الحزن والكآبة والضياع، ومنها ما يعني أيضًا النور، على أن للون الأزرق استخدامات حملت دلالاته (الطبيعية) العادية دون الخروج إلى إيحاء جديد، واقترنت الزرقة بالماء كثيرًا من البحر إلى المحيط"[٥٧].

ومن خلال هذا يمكن إجمالًا القول بأن للأزرق عدة دلالات بعضها يدل على الخمول والكسل والهدوء والراحة، وبعضها يعكس الثقة والبراءة والشباب، وأحيانًا يدل على التميز والشعور بالمسئولية[٥٨]. بيد أن ديوان سميح القاسم يغلب عليه توظيف استخدام اللون الأزرق بدلالاته السلبية مثل قوله[٥٩]:

واسقوا مشاتلنا الذاويه
إنني عائد ،
أكسر الزرقة القاسيه
من مطل على الرابيه !
إنني عائد،
والجياد التي هزمتها السجلات والقاذفات

عائده،

إنني عائد .. والجياد،

عائده،

من خلال البحث في دلالات اللون الأزرق نجد أنه يحمل في طياته – أحيانًا – دلالات الإحساس بالحزن والكآبة والضياع، إلى جانب الشعور باليأس والإحباط والهزيمة والانكسار، وإننا من خلال مطالعة النص نجد الروح المسيطرة على عبارات النص وألفاظه تدور حول روح التحدي، ومواجهة الصعوبات والمشكلات، وفي قوله: (أكسر الزرقة القاسيه) تعبير عند تلك الروح، فالزرقة ههنا تشير إلى دلالات الغموض وغياب الرؤية والضياع ي هذه الحياة، وفي (أكسر) تعبير عن السعي نحو التحدي العمل على كسر هذه الظلمة، وهزيمة الإحساس باليأس والهزيمة والانكسار.

من الأمور التي نؤكد عليها أن اللون له تأثير كبير في حياتنا؛ فهو "يؤثر في إقدامنا أو إحجامنا، ويشعرنا بالحرارة أو البرد، أو بالسرور أو الكآبة، بل يؤثر في شخصية الرجل وفي نظرته الى الحياة"[٦٠]. وبسبب الحالة الانفعالية للشعر انعكست رؤيته للأشياء من حوله، وفي نص آخر يقول الشاعر[٦١]:

ويدي تمتد في الليل إلى مكتبة البيت القديمه ،

وإلى الصبح أسوح

بين شطآن الجروح

جرحي الأول : من بغداد ..

من بغدادنا الملتهبة !

حيث ماء النهر مزرق بحبر المكتبه

حيث صارت جثث الكتب جسوراً ..

عبرها تعدو سرايا .. وتولي مركبه !

من خلال قراءة النص نجد أن الشاعر قد وظف الموروث الثقافي وأحداث التاريخ، من أجل التعبير عن بعض الأحداث التي يمكن إسقاطها على الواقع في الزمن الحاضر واللحظة الراهنة، وقد عبر عن ذلك من خلال الإشارة إلى اللون الأزرق الذي يشير ههنا إلى (الحبر) الذي لوَّن النهر، وذلك إشارة إلى الحادثة التاريخية الشهيرة، حيث قام المغول بإلقاء كتب مكتبة بغداد

بعد أن اجتاحوها، وتوظيف اللون في النص يدل على همجية المحتل وبربريته وأنه عدو الحياة والحضارة والعلم وكل ما هو يرمز إلى الإنسانية.

خاتمة البحث وأهم نتائجه

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد:

فقد قام البحث بدراسة دلالات الألوان في الشعر المقاوم متخذًا من شعر سميح القاسم نموذجًا، بهدف الكشف عن تجليات الألوان، ومعرفة دلالات كل اللون منها، وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- وضَّح البحث بروز ظاهرة الألوان وشيوعها في شعر سميح القاسم، وقد اتخذت دلالات متنوعة وثرية، أفادت المعنى، وأكسبته أبعادًا أكثر عمقًا وثراءً في الصورة الشعرية وبينة القصيدة.
- من خلال تتبع الألوان واستقصائها تبين للبحث أن أهم الألوان في شعر سميح القاسم هي: (الأحمر، الأسود، الأبيض، الأخضر، الأصفر، الأزرق).
- اللون الأحمر من الألوان الأساسية في ديوان الشاعر سميح القاسم، بل إنه اللون الأكثر تكرارًا وحضورًا في الديوان، والملاحظ أن اللون الأحمر يتميز بأنه لون يرتبط بالحالات النّفسية الحادة والعواطف الثّائرة كشدة الحب، وشدة الغضب، والرغبة في الانتقام والعدوانية، وفي ديوان سميح القاسم ارتبط بالثورة والتمرد والغضب، والدماء التي تسيل في الحروب والثورات.
- اللون الأسود من بين الألوان كثيرة الحضور والتكرار في أشعار سميح القاسم، بيد أنه لون ارتبط غالبًا بالدلالات سلبية، حيث يرمز للحزن والبؤس والشقاء والحداد والموت، وبرغم هذه الدلالات السلبية، فإنه أحيانًا يشير إلى بعض الدلالة الإيجابية كما بين البحث ذلك.
- اللون الأبيض لون كثير الحضور في ديوان سميح القاسم، وهو أكثر الألوان ارتباطًا بالدلالات الإيجابية كالنّور والفرح والنّصر والسّلام والطّهارة والنقاء والهدوء والأمل.
- اللون الأخضر من الألوان الحاضرة في ديوان سميح القاسم، وهو يدل على معاني مرتبطة بتجدد الحياة والنّمو والأمل والخصوبة.
- اللون الأصفر في أشعار سميح القاسم من الألوان المرتبطة بدلالات مختلفة تصل أحيانًا إلى حد التناقض، فبعضها يشير إلى معاني إيجابية كتجدد الحياة والخير والنماء، والنور والإشراق والضياء والدفء، وأحيانًا يحمل معاني سلبية كالحقد والكراهية والغضب، والموت والمرض والشحوب والجفاف والقحط.

- اللون الأزرق عند سميح القاسم أيضًا من الألوان متعددة الدلالات، بعضها إيجابي كالراحة والطمأنينة والهدوء، وبعضها سلبي كالموت والعداوة، بالحزن والكآبة والضياع واليأس، والملاحظ أن توظيف اللون الأزرق في ديوان سميح القاسم يغلب عليه الدلالات السلبية.

الهوامش:

[١] كلود عبيد: الألوان (دورها – مصادرها – رمزيتها – ودلالتها)، مراجعة وتقديم محمد حمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروا، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م، ص ٩.

[٢] ينظر: شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٧، مارس ٢٠٠١ م، ص٢٧٠.

[٣] يوسف حسن نوفل: الصورة الشعرية والرمز اللوني، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٢٥.

[٤] موسى ربابعة: تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ، الطبعة الأولى، ٢٠١١ م، ص ٤٦ز

[٥] ينظر: شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، ص٢٧٠.

[٦] محي الدين طالو: الرسم واللون، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٦١ م، ص٧٢.

[٧] أسامة الشوربجي: جماليات اللون في شعر كشاجم، مجلة كتابات، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، العدد الثالث، مارس ٢٠١٢ م، ص ١١٣.

[٨] زينب عبد العزيز العمري: اللون في الشعر العربي القديم، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩ م، ص١٩.

[٩] سميح القاسم: ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ١٠٢.

[١٠] سليم عباسي: اللون (تأثيره في الناس)، مجلة بناة الأجيال، العدد ٣٩، سوريا، ص١٢٠ وما بعدها.

[١١] الديوان: ص ٢٨٧.

[١٢] انظر: إبراهيم العوضي: نظرات جديدة في الفن الشعري، الكويت، ط ٢، ١٩٧٤ م، ص: ١٩.

[١٣] الديوان: ص ٣٣٢.

[١٤] عبد الرحمن بدوي: فلسفة جمال الفن عند هيغل، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦ م، ص ٤١.

[١٥] الديوان: ص٣٣٦–٣٣٧.

[١٦] حافظ المغربي: اللون بين فلسفة الفن والشعر، مجلة جذور، النادي الأدبي، جدة، العدد: ١٨، شوال ١٤٢٥ هـ – ديسمبر ٢٠٠٤ م، ص ٣٣٢.

[١٧] الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، ص ١٢٠.

[١٨] أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ م، ص ١٨٦.

[١٩] فاتن عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية، دار مجدلاوي، عمان، ط ١، ٢٠١٠، ص ٤٤.

[٢٠] الديوان: ص ٨٠.

[٢١] قاسم صالح حسين: سيكولوجية إدراك اللون والشكل، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢ م، ص ٥.

[٢٢] الديوان: ص ١٦٢.

[٢٣] انظر: الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، ص ٧٥.

[٢٤] الديوان: ص ٢٤٢.

[٢٥] محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٨، ص٢٢٢.

[٢٦] الديوان: ص ٤٧–٤٨.

[٢٧] عبد العزيز المقالح: شعرية اللون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مجلة فصول، ع ٣، يوليو ١٩٩٦ م، ص ٣٢٠.

[٢٨] الديوان: ص ٤٩.

[٢٩] انظر: أمل محمود عبد القادر: اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣ م، ص ٥٦.

[٣٠] انظر: إبراهيم محمد علي: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام – قراءة مثيولوجية، جروس برس للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م، ص ١٢٤.

[٣١] محمد يوسف همّام، اللون، ط ١، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٠ م، ص٠٧

[٣٢] فرج عبود، علم عناصر الفن، دار الفن، ميلانو، إيطاليا، ١٩٨٢، ج ١، ص١٣٧.

[٣٣] الديوان: ص ٢٥٨–٢٥٩.

[٣٤] تجليات اللون في شعر كشاجم، ص ٦٩.

[٣٥] الديوان: ص ٥٦٨.

[٣٦] تجليات اللون في شعر كشاجم، ص ٦٩.

[٣٧] الديوان: ص ٥٧٠.

[٣٨] الديوان: ص ٥٥٩.

[٣٩] أمل محمود عبد القادر: اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي، ص ٤٧.

[٤٠] محمد يوسف همام، اللّون، ص١١.

[٤١] سعيد عبد الرحمن قلج: جماليات اللون في السينما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥ م، ص٤٤.

[٤٢] الديوان: ص ٣٣٢.

[٤٣] تجليات اللون في شعر كشاجم، ص ٧٩.

[٤٤] الديوان: ص ٥١٥.

[٤٥] سلمى باحشوان: المكان في شعر طاهر زمخشري، كرسي الأدب السعودي، الرياض، ١٤٣٧ هـ– ٢٠١٦ م، ص ١٠٩.

[٤٦] الديوان: ص ٦١١.

[٤٧] ظاهر هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر الأردني، أطروحة ماجستير، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، الجامعة الهاشمية، عمان، الأردن، ٢٠٠٧ م، ص ٣٠.

[٤٨] الديوان: ص ٣٣.

[٤٩] انظر: شكري عبد الوهاب: الإضاءة المسرحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥ م، ص ١٢٧.

[٥٠] محمد يوسف همام، اللون، ص ٨٠.

[٥١] ظاهر محمد الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر الأردني، ص ١١٧.

[٥٢] الديوان: ص ٣٠٩.

[٥٣] انظر: أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص ٢٢٩.

[٥٤] أثبتنا النص كما جاء في طبعة الديوان المعنون بـ (ديوان البراكين)، طبعة شركة المكتبة الشعبية، الناصرة، الضفة الغربية، فلسطين المحتلة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ م، ص ٩٨.

والنص ورد في المجموعة الكاملة محذوف منه (تاجَ ملوكِ يَعرُبَ) وموضوع مكانها عدة نقاط، على النحو التالي:

لو هَزَّنا أن يَصنعَ الأعداءْ

.... من حَذوةِ الحِصَانْ

ما أصبَحَتْ حبيبتي مِنَ الدخان

وجثة صفراء

يزني بها شراذم القرصان

انظر: الديوان: ص ٢٧٨.

[٥٥] الديوان: ص ٥٢٣.

[٥٦] يحيى حمودة: نظرية اللون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥ م، ص١٣٦.

[٥٧] ظاهر محمد هزاع الزواهرة، اللون ودلالته في الشعر، ص ٦٠.

[٥٨] انظر: أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص ٢٢٨.

[٥٩] الديوان: ص ٤٢٢.

[٦٠] عبد الرزاق نوفل: القرآن والعلم الحديث، مطابع الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢ م، ص ٧٣.

[٦١] الديوان: ص ٥١٤.

مصادر البحث ومراجعه

- إبراهيم العوضي: نظرات جديدة في الفن الشعري، الكويت، ط ٢، ١٩٧٤ م.
- إبراهيم محمد علي: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام – قراءة مثيولوجية، جروس برس للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- أحمد مختار عمر: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ م.
- أسامة الشوربجي: جماليات اللون في شعر كشاجم، مجلة كتابات، الجمعية المصرية للدراسات السردية ، العدد الثالث، مارس ٢٠١٢ م.
- أمل محمود عبد القادر: اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣ م.
- الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
- حافظ المغربي: اللون بين فلسفة الفن والشعر، مجلة جذور، النادي الأدبي، جدة، العدد: ١٨، شوال ١٤٢٥ هـ – ديسمبر ٢٠٠٤ م.
- زينب عبد العزيز العمري: اللون في الشعر العربي القديم، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩ م.
- سعيد عبد الرحمن قلج: جماليات اللون في السينما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥ م.
- سلمى باحشوان: المكان في شعر طاهر زمخشري، كرسي الأدب السعودي، الرياض، ١٤٣٧ هـ– ٢٠١٦ م.
- سليم عباسي: اللون (تأثيره في الناس)، مجلة بناة الأجيال، سوريا، العدد ٣٩.
- سميح القاسم: ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧ م.
- شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٧، مارس ٢٠٠١ م.
- شكري عبد الوهاب: الإضاءة المسرحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ظاهر هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر الأردني، أطروحة ماجستير، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، الجامعة الهاشمية، عمان، الأردن، ٢٠٠٧ م.
- عبد الرحمن بدوي: فلسفة جمال الفن عند هيغل، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م.

- عبد الرزاق نوفل: القرآن والعلم الحديث، مطابع الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
- عبد العزيز المقالح: شعرية اللون، مجلة فصول، ع ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١يوليو ١٩٩٦ م.
- عبد الهادي خضير: المفارقة في شعر المتنبي، دائرة الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، مجلد المورد، المجلد ٣٥، العدد ١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.
- عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي – عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٥٥م.
- فاتن عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية، دار مجدلاوي، عمان، ط ١، ٢٠١٠ م.
- فرج عبود، علم عناصر الفن، دار الفن، ميلانو، إيطاليا، ١٩٨٢.
- قاسم صالح حسين: سيكولوجية إدراك اللون والشكل، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢ م.
- كلود عبيد: الألوان (دورها – مصادرها – رمزيتها – ودلالتها)، مراجعة وتقديم محمد حمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروا، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.
- محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م.
- محمد يوسف همّام: اللون، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ط ١، ١٩٣٠ م.
- محي الدين طالو: الرسم واللون، مكتبة أطلس، دمشق ، ١٩٦١ م.
- موسى ربابعة: تشكيل الخطاب الشعري ، دراسات في الشعر الجاهلي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ، ط ١ ، ٢٠١١م.
- يحيى حمودة: نظرية اللون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥ م.
- يوسف حسن نوفل: الصورة الشعرية والرمز اللوني، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥م.